مجتمع مكة في أدب الرحلات المغربية

(قراءة في النصوص والدلالات)

إعداد

د . عبد الرحيم العلمي

أستاذ التعليم العالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس

المملكة المغربية

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

– تدور تجربة الكتابة السفَرية، أو أدب الرحلات المغربية في عمومه على ثلاثة مقاصد أساسية هي :

أ – الحج إلى البقاع المقدسة .

ب – التفكر في عجائب صنع الله ومصائر الخلق .

ج – اللقاء بالأكابر من علماء ومشايخ وعباد، طلبا للعلم والمعرفة، وطلبا للإجازة وطرق الرواية، وكذلك طلبا للاقتداء في الأخلاق والسلوك .

– ونظرا لبعد المسافة بين بلاد المغرب وأرض الحجاز، حيث البقاع المقدسة، ومهبط الوحي، ظهر لدى المغاربة فن أدبي جميل متخصص، هو أدب الرحلة الحجازية، أو : " الحجازيات "، أبدعوا فيه وكثرت كتاباتهم بشكل كبير ومتميز، إذ تعد بالعشرات .

من أهم هذه النصوص رحلة : " ماء الموائد " لأبي سالم العياشي، التي حرص فيها المؤلف على تقديم صورة حية عن خصوصيات المجتمع المكي، ووصف أدق التفاصيل والجزئيات عن مكوناته وأصولها واهتماماتها، فقدم لنا معلومات تاريخية في غاية الأهمية ، عن أنماط الحياة والسلوك والتفكير لدى أهل مكة في تلك المرحلة .

بالإضافة إلى ذلك، تستدعي هذه الرحلة منا في الحقيقة – مثل غيرها من النصوص الرحلية – توقفا كبيرا أمام حرص أسلافنا على ربط الفروع بأصولها، وعلى التواصل والتلاقح العلمي مع أهل بلاد الإسلام من مختلف الأمصار، باعتبار هذه الأمصار كلها وطنا واحدا، وباعتبار مكة مركز هذا الوطن ومحوره .

مدخـــل :

بدءا لابد أن يلاحظ الباحث منذ الوهلة الأولى أن منطلق الكتابة في أدب الرحلة عموما الذي يمثل جنسا متميزا في أدب الغرب الإسلامي، تحكمه معادلة ثنائية تتميز بالتلازم في مجمل خصوصياته قضاياه المطروحة، من حيث الدلالة، والأبعاد، والتجليات، والمرجعيات التي يؤسس عليها . وهي : البعد جغرافي الفيزيقي من جهة، والبعد الديني الروحي من جهة ثانية .

فرغم الإمكانيات الهامة التي تتيحها الحركة السفَرية والكتابة السفَرية عموما للمشاهدة والاستكشاف، فإنها بالنسبة إلى أدب الرحلة الإسلامي تكتسيي أهمية مضاعفة بالنظر إلى دلالاتها المتعددة في المرجعية الدينية المقدسة، هذه المرجعية التي تحث عل السفر والرحلة والسياحة في عدد كبير من النصوص نذكر منها قوله تعالى : ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله،وبشر المومنين ﴾ [١]، ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ [٢]، ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ [٣]، ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [٤] ، ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ [٥]، ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ [٦]،

١ –سورة التوبة – الآية ١١٢ .

٢ – سورة نوح / آية : ١٩–٢٠ .

٣ – العنكبوت / ٢٠ .

٤ – النحل / ٣٦ – وأيضاً بنفس اللفظ : الأنعام / ١١ .

٥ – الروم / ٤٢ .

٦ – النمل /٦٩ .

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها...﴾ [١] ، ﴿ .. وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ [٢] ، ﴿ فلولانفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .. ﴾ [٣] ، ﴿ ..أفلم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها...﴾ [٤] ، ﴿ .. ومن يهاجرفي سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة... ﴾ [٥] ، ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ [٦] ، ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [٧] ، ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر...﴾ [٨] ، وقصة هجرة لوط : ﴿ فآمن معه لوط، وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ..﴾ [٩] ، والرحلة الموسوية مع الفتى والعبد الصالح : ﴿..وإذقال موسىلفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً...﴾ [١٠] ، ورحلة ذي القرنين : ﴿.. فاتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً ... ثم اتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم

١ – الروم / ٩ .
٢ – سبأ / ١٨ .
٣ – التوبة /١٢٢ .
٤ – النساء /٩٦ .
٥ – النساء /٩٩ .
٦ – النساء /٩٩ .
٧ – الملك /١٥ .
٨ – يونس /٢٢ .
٩ – العنكبوت /٢٥ .
١٠ – الكهف/ ٥٩ وما بعدها .

لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك ... ثم اتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا..﴾[١] ...إلخ .

إلى جانب دلالة الهجرة والرحلة والسفر في النص الحديثي الشريف، في قوله عليه السلام مثلاً : "سافروا تصحوا "[٢] . وقوله : "...فمن كانت هجرته إلىاللّه ورسوله، فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .. "[٣]، وقوله : " يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وخفف الحمل فإن السفر بعيد، وأحمل الزاد فإن العقبة طويلة، وأخلص العمل فإن الناقد بصير "[٤]، ثم حديث " الملائكة السياحين "، وغيرها من النصوص، وهي كثيرة جداً .

انطلاقاً من هذه المرجعية إذن، تحول السفر إلى واحد من وسائل التعبد والتفكر، فاكتسى صبغة تربوية، منذ الطبقة الأولى من عباد بغداد خلال القرن الثالث ومن بعدهم ، ولذلك أفرد له مؤلفوهم أبوابا خاصة،

---

١ – الكهف / ٨٣ وما بعدها . وانظر أيضا : الأحزاب / ٥٠– البقرة / ٢١٨ – آل عمران / ١٩٠ – الأنفال / ٧٢ – الأنفال / ٧٤ – الأنفال / ٧٥– التوبة /٢٠– النحل / ٤١– النحل / ١١٠– الحج / ٥٨ – الممتحنة / ١٠ – التوبة / ١٠٠.

٢ –حديث حسن أخرجه ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي سعيد – الجامع الصغير –السيوطي – دار الفكر – بيروت – ١٩٨١ – ج ٢ – ص ٣٩ .

٣ –حديث متفق عليه أخرجه البخاري في الصحيح – دار إحياء التراث – ط بيروت – لات – ج ١ – ص : ٢١ . ومسلم في صحيحه – دار إحياء التراث – بيروت – لات – ج : ٣ ص : ١٥١٥ .

٤–حديث رواه الديلمي في الفردوس– انظر : الفردوس بمأثور الخطاب – لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي الهمذاني (ت ٥٠٩ هـ) – تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٩٨٦ . ج : ٥ ص : ٣٣٩ .

كالطوسي [١]، و المكي [٢]، والقشيري [٣]، والغزالي [٤] ...

هذا إضافة إلى عدد من المؤلفات الكبرى المعروفة في التاريخ الإسلامي التي تأسست أصلا على هذه الصورة المرجعية كليةً مثل كتاب : منازل السائرين إلى الله، للهروي الأنصاري، وكتاب : مدارج السالكين، وكتاب : وطريق الهجرتين، وكتاب : زاد المهاجر إلى ربه لابن قيم الجوزية ... وغيرها .

ولهذا وجدناهم يطلقون تصنيفات مثل : " السياحين" و" المسافرين "... باستمرار في مؤلفاتهم [٥].

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى عموم أدب الرحلة الإسلامي، فإن التداخل في أدب الرحلات المغربية تعمق بشكل واضح ومثير يجعل من الصعوبة بمكان تصنيف نصوصه ضمن خانة بعينها، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار بعد المسافة التي تفصل بلاد المغرب عن الحجاز، مهبط الوحي وتربة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، التي لا تكتمل أركان الإسلام إلا في بقاعها المقدسة .

إنه ارتباط فرض على أهل الغرب الإسلامي لزاما خوض تجربة السفر

١ – اللمع – لأبي نصر السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) – تحقيق د عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور – دار الكتب الحديثة بمصر – ومكتبة المثنى ببغداد – ١٩٦٠ – من : ص ٢٩٧ – إلى : ص ٢٣٣ – ومن : ص ٢٥٠ – إلى : ص ٢٥٢ .

٢ – قوت القلوب – لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) – دار الفكر – بيروت – لات :٢ / ٦٣ .

٣ – نفسه – ٢ / ٣٠٤ .

٤ – إحياء علوم الدين – لابي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) – دار الفكر – بيروت – ط ١ – ١٩٩١ : ٢ / ٢٦٧ .

٥ –انظر في ذلك : مثلا : اللمع – ص : ٤٢ – والإحياء : ٣ / ٨٤ .

والرحلة ومتعلقاتها، وجعلهم يحرصون على استغلال ما يبذلونه فيها من مشقة، وما يلقونه من تعب في تحقيق أقصى الفوائد، وتحصيل أكبر قدر من المرويات والمدركات والمواعظ والعبر التربوية، إلى جانب مناسك الحج طبعا .. الخ [١] .

هكذا إذن، بالنظر إلى كل ما ذكرنا، تدور تجربة الكتابة السفرية، أو أدب الرحلات المغربية عموما على ثلاثة مقاصد أساسية هي :

أ – الحج إلى البقاع المقدسة .

ب – التفكر في عجائب صنع الله ومصائر الخلق .

ج – اللقاء بالأكابر من علماء ومشايخ وعباد، طلبا للعلم والمعرفة، وطلبا للإجازة وطرق الرواية، وكذلك طلبا للاقتداء في الأخلاق والسلوك .

بل إن الأمر عند المغاربة سيفضي في النهاية إلى إفراز فن أدبي متخصص برعوا فيه بشكل كبير، ألا وهو أدب الرحلة الحجازية، أو " الحجازيات " كما اصطلح على تسميته، أبدعوا فيه أيما إبداع وكثرت كتاباتهم ورسائلهم فيه بشكل كبير، إذ تعد بالعشرات . من هذه النصوص نذكر على سبيل المثال :

– الرحلة الصغرى المسماة : التعريف والإيجاز، ببعض ما تدعو الضرورة في طريق الحجاز، لصاحبنا أبي سالم العياشي [٢] .

---

١ – مقدمة ابن خلدون – تحقيق علي عبد الواحد وافي – دار النهضة المصرية – ١٩٥٦ – ص : ٨٠٥ .

٢ – منها ثلاث نسخ مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحمل أرقام : ٤٣ ك، ٢٨٣٩ د، ٢٧٩٣ د .

– الرحلة المقدسة لمحمد بن المرابط الدلائي [١] .

– حجازية أبي علي اليوسي [٢] .

– رحلة المنى والمنة، لأحمد المصطفى بن طوير الجنة الشنقيطي [٣] .

– هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام، وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، لأحمد بن محمد الجزولي الهشتوكي [٤] .

– وله حجازية ثانية [٥].

– نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس، لأحمد بن علي القادري الحسني الفاسي [٦].

– رحلة القاصدين ورغبة الزائرين، لعبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي [٧] .

---

١ – منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٣٦٤٤ د ، ضمن ديوان والده .

٢ – منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤١٨ ك ضمن مجموع، وأخرى بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٢٣٤٣ .

٣ – رحلة المنى والمنة لجامعها ومنشئها الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة – عبد القادر زمامة– مجلة البحث العلمي– ع : ٢٨– س ١٤– يوليوز / دجنبر ١٩٧٨ – المعهد الجامعي للبحث العلمي – جامعة محمد الخامس –الرباط .

٤ – منها نسخة بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم:١٩٠ ق (٦٤ ميكروفيلم) .

٥ – منها نسخة يتيمة بخط المؤلف، بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤٧ ق .

٦ – منها نسختان مخطوطتان بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤١٨ ك ضمن مجموع، و: ٣٢١٦ ك . ونسخة ثالثة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: ٨٧٨٧ .

٧ – منها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٥٦٥٦ .

– حجازية محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي [١] .

– حجازية أبي مدين محمد بن أحمد السوسي الدرعي [٢].

– بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، لعبد المجيد بن علي المنالي الزبادي الحسني الفاسي [٣].

– حجازية محمد بن أحمد الجزولي الحضيكي [٤] .

– إحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، لابن عثمان المكناسي [٥] .

– حجازية أحمد بن محمد الفهري [٦] .

– الحجازيتان الصغرى [٧] والكبرى [٨] لمحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي .

– حجازية إدريس بن عبد الهادي العلوي [٩] .

---

١ – منها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ١١٨٦٧ ، وثانية بخزانة القرويين بفاس تحت رقم : ١٢٥٨ .

٢ – منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٢٩٧ ق ضمن مجموع .

٣ – منها نسختان مخطوطتان بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم :١٨٠٨ د ، ورقم :٣٩٨ ك.

٤ – منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٨٩٦ ضمن مجموع .

٥ – منها نسختان بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٥٢٦٤ ، و : ١٢٣٠٧ .

٦ – منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٨٨ ج ضمن مجموع .

٧ – منها نسختان بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ١٤٧ ، و : ١٢١ .

٨ – منها مخطوطة فريدة بخط المؤلف بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٥٦٥٨ .

٩ – منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١١١٥ د ضمن مجموع .

– حجازية محمد بن عبد الله الغيغائي العمري [١] .

– حجازية أحمد بن محمد السبعي السغروشني [٢] .

– حجازية عبد السلام بن محمد السرغيني العمراني المراكشي [٣] .

– حجازية محمد بن أحمد العلمي الحسني الفاسي [٤] .

– حجازية محمد بن الهاشمي بوشعراء السلوي [٥] .

– حجازية إدريس بن محمد السلاوي [٦] .

– حجازية أحمد بن العياشي سكيرج الفاسي الخزرجي [٧] .

– الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية، للحسن بن محمد الغسال الطنجي [٨].

– الرحلة المغربية المكية، لأحمد بن محمد السلاوي [٩] .

– الرحلة المعينية المحررة، إلى مكة والمدينة المنورة، لمحمد ماء العينين بن

١ – منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٩٨ ج (١٢ ميكروفيلم) .

٢ – منها نسخة فريدة بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٢٩٠٧ ك .

٣ – منها نسخة بالخزانة العامة تحت رقم : ١٠١٢ ك ضمن مجموع .

٤ – منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة تحت رقم : ١٠١٢ ك ضمن مجموع .

٥ – منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٣٢٥٩ د .

٦ – منها نسخة مخطوطة ببعض الخزائن الخاصة بسلا .

٧ – مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ١٢٤٩٩ .

٨ – منها نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤٩٦ د .

٩ – منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٨٥٠ د – ضمن مجموع (ميكروفيلم : ١٢١٦)

محمد العتيق الشنقيطي [١] .

– ومعظم هذه الرحلات لا زال مخطوطا في حاجة إلى التحقيق والدراسة والنشر ونفض غبار السنين عنه وإخراجه للباحثين وطلاب العلم، وهي ملاحظة يمكن اعتبارها بمثابة دعوة نوجهها إلى الباحثين والأكاديميين للعناية بهذا التراث النفيس والتعريف به .

طبعا بما أن موضوع مداخلتي هو مجتمع مكة في أدب الرحلة المغربية، وبما أن الرحلات المذكورة كلها حجازية، فمعنى هذا أنها بالضرورة تعرضت لهذا الأمر، ووصف أصحابها جملة من خصوصيات المجتمع المكي، وعادات أهله وغير ذلك ، بحيث لا يتسع المجال لاستقصاء كلها في هذه الندوة المباركة .

لهذا الاعتبار، فقد آثرت أن أقف على نموذج واحد منها، وهو في اعتقادي أوسعها وأوعبها، إذ لم يكتف فيه المؤلف بمشاهداته ومروياته المباشرة عن مجتمع مكة المكرمة، بل استفاد كذلك من مرويات ومشاهدات من سبقوه من كتاب الرحلات المغاربة عبر القرون كالعبدري، وابن رشيد، وغيرهما .

هذا النموذج الذي نتحدث عنه هو رحلة الشيخ العالم الفقيه المحدث الشاعر الأديب اللغوي، أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى بن محمد بن يوسف بن عبد الله العياشي، نسبة لآل عياش أو آيت عياش، قبيلة بربرية تتاخم الصحراء من أحواز سجلماسة، ولد سنة ١٠٣٧هـ

١ – منها نسخة على الميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٨٠ .

/١٦٢٨م بقرية تازروفت ـ على بعض روافد وادي زيز جنوب المغرب الأقصى، وتوفي سنة ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م . أخذ عن جملة من العلماء الناصريين، وعلماء فاس، ومراكش، وطرابلس، ومصر، وفلسطين، ومكة، والمدينة المنورة وغيرها .

ورحلته المقصودة هي المشهورة ب : " ماء الموائد " .

إنها رحلة جمع فيها المؤلف كل ما أمكنه الوقوف عليه من مشاهدات ومرويات، ومن فوائد ومعلومات في شتى أنواع الفنون والعلوم، ومن أسانيد ومسلسلات وإجازات ومناولات، وقضايا ونوازل ومناقشات فقهية، ومن حكايات الصالحين والعباد، وكذلك من مختلف الملاحظات التي أثارت انتباهه، على المستوى الاجتماعي، وأنماط السلوك والتفكير، وأشكال البدع والخرافات السائدة غير المؤصلة شرعا . وحرص فيها حتى على تدوين ما لاحظه من ظواهر وخصائص نباتية وجيولوجية ومناخية وغيرها ... ولذلك وصفها هو نفسه قائلا : " إذ الغرض من هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، فلا آلو ما أدخلت فيها من الفوائد لرغبة كثير من الأصحاب في ذلك "[١].

إن القيام بعملية قراءة أولية لمشاهدات أبي سالم العياشي في مكة المكرمة يحمل الباحث على الاعتقاد بأنه رغم أن رحلة " ماء الموائد " لم تكن في أصل منطلقها استكشافية بالمعنى الجغرافي للكلمة، إذ كانت محكومة بخلفية المناسك التي شكلت لحمتها وسداها، وصفا ونقاشا وتأصيلا فقهيا ونقاشا وبسطا ورواية ومقارنة، إلا أن الحس الوصفي الذي كان يتمتع به أبو

١– الرحلة : ٥٤٦ .

سالم جعله يلتفت إلى جانب كل ذلك إلى جملة من الظواهر تتعدد مجالات تصنيفها : منها ما يتعلق بالظاهرة الطبيعية، ومنها ما يتعلق بالظاهرة البشرية أي بالأنماط السلوكية السائدة في المجتمع، ومنها ما يتعلق بالحركة العلمية ... الخ .

١ – فبالنسبة إلى المشاهدات ذات العلاقة بالظاهرة الطبيعية، لعل من المفيد الإشارة إلى أن هذا النوع من المشاهدات ربما لم جاز اعتباره على غير شرط موضوع المداخلة التي تدور حول خصوصيات المجتمع المكي، إلا أنه كان لا بد من الإشارة إليها هنا في عجالة لأنها في كثير من الأحيان تتحكم في صياغة بعض أنماط السوك والتفكير لدى أفراد مجتمع معين .

هكذا نجد أبا سالم يتحدث عن ما لفت انتباهه من خصوصيات نباتية مثل : زهر الخزامى في بعض المسالك، وأشجار العرعر في الطريق إلى الطائف [١] التي قال إنها تشبه ما يوجد في بلاده، وعن خصوبة الأرض وكثرة المزارع قرب مكة [٢]، وفي الطريق إلى جدة، هذه المزارع التي يذكر أنها كانت مصدرا أساسيا لما نال أهل مكة من رغد العيش وكثرة الخيرات ومن فواكه طيبة اشتهرت جودتها، من لحم وإدام ودلاع، أي البطيخ الذي قال إنه كان معروفا بالجودة عند أهل مكة [٣]، وغيرها .

وإلى جانب ما لقيه هو وأصحابه من عنت بسبب شدة الحر الذي لم يعتد مثله في بلاده، تحدث أبو سالم في المقابل عما كانت تتعرض له مكة

١ – الرحلة : ٦٠٧ .

٢ – الرحلة : ٥٩٥ .

٣ – الرحلة : ٦٠٢ .

المكرمة بين الحين والآخر من كوارث وخراب ودمار بسبب السيول، فذكر أنها تعرضت سنة تسع وثلاثين وألف ١٠٣٩ هـ لسيل عظيم قال إن الكعبة : " سجدت لله فيه ووقع معظمها "، فوصف بعض ما حدث فيه وما حل بالناس بسببه، روايةً عن بعض من شاهده وأدركه .

أما السيل الثاني الذي تعرضت له مكة المكرمة، فهو الذي حصل سنة ١٠٦٤ هـ وقت حلول أبي سالم بها، وقال إنه : " أفسد الطريق وخرب الأسواق والدور وأهلك الناس والأموال وأفسد معظم المسجد " [١] .

لقد أسهب المؤلف فعلا في الوصف الدقيق لما حل بالمدينة المقدسة نتيجة هذا السيل الأخير، وما خلفه من هلاك ودمار، وما كابده الطائفون من مشقة وعناء بسبب الطين المتراكم في فنائه وحول الكعبة، وما تلف أو ضاع فيه من نفائس الكتب والمصنفات، ثم ما أنفقه بعض رجال الدولة من أموال لإصلاح ما فسد وإعادة بناء البيت وتنظيفه، حسبما سيأتي بيانه وشيكا .

وإلى جانب ذلك، تحدث العياشي عن جملة من تفاصيل الحياة اليومية في المجتمع المكي التي نحسب أن منها ما هو معلوم لدى أهل عصرنا ولا زال العمل به جاريا في بعض مناطق الحجاز، وكان أحيانا يقف عندها واصفا بدقة، متعجبا أحيانا، ومقارنا أحيانا أخرى بين ما يشاهده في مكة وبواديها، وبين ما تركه في بلاده . من هذه الأمور نذكر على سبيل الإيجاز :

– عادة أهل الحجاز في السفر بالليل على غير عادة المغاربة [٢] .

---

١ – الرحلة : ٥٩٥ .

٢ – الرحلة : ٥٩٧ .

– عادتهم في التعامل مع الإبل، وفي تحميلها حسب إرادتها، وفي إعطائها الحرية في المشي على مهل بحسب إرادتها .[١]

– الوصف الدقيق لبعض آلاتهم ومتاعهم كالشقدف، وهو محمل كبير قال إنه ما رآه

إلا في أرض الحجاز : " ذو شقين، توضع كل واحدة على جنب البعير، ويقرن بينهما بحبال وثيقة على ظهره . ولا بد للراكب فيه من معادل له في الجهة الأخرى مقاربا له في الرزانة . ثم يوصل بين الشقين من أعلى بحبال، يظلل عليها بغطاء يقي الحر والبرد . وهو من أشهى المراكب وأهناها، سيما لمن له فرش وثيرة ووسائد يتكئ عليها من الجانبين ؛ فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به، فقد رأينا من اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره، ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول، وقد لا يستيقظ "[٢] .

– ظاهرة القهاوي التي لم يعتدها في بلاده، ينزل المسافرون في كل قهوة، فيستريحون ويشربون القهوة أو الماء ويشترون علفا للدواب . قال العياشي إنه وجد هذه القهاوي بين مكة والطائف، ووجد منها في الطريق إلى جدة ثمانية[٣] .

– وصف سكنى الجاج بمكة ومرافقها[٤] .

---

١ – الرحلة ٥٩٧ .

٢ – الرحلة : ٥٩٣ .

٣ – الرحلة : ٦٠٣ – ٦٠٧ .

٤ – الرحلة ٥٩٩ .

– هذا بالإضافة إلى وصف أهم مزارات مكة [١] كدار الأرقم، والمودع (مزار ينسب للشيخ عبد القادر الجيلاني)، ومسجد الجن [٢]، ومولد الرسول (ص) [٣]، ودار خديجة، ومولد فاطمة، ومولد علي، ودار أبي بكر، وغار جبل ثور، وشعب أبي طالب، وجبل أبي قبيس [٤]، و مولد عمر (ض)، والحجون حيث قبر خديجة ، والفضيل بن عياض، وبهاء الدين السبكي، وقباب كثيرة للشرفاء أمراء مكة ... الخ .مع المقارنة بين مشاهداته ومشاهدات ابن رشيد وموصوفاته (ماء قبط مثلا) [٥] .

٢ – أما على مستوى المشاهدات ذات العلاقة بالظاهرة البشرية أو أنماط السلوك والتفكير لدى المجتمع المكي، فقد كان أبو سالم حريصا غاية الحرص على أن لا يهمل شيئا مما لاحظه أو أثار انتباهه من عادات القوم وأخلاقهم ومكارمهم، سواء في أمور دينهم وعبادتهم، أو دنياهم ومعاشهم، مثنيا على علو همتهم في العبادة، ومحبتهم في القرآن وأهله، وحسن خدمتهم للحجاج، وكثرة اشتغالهم بالعلم وطلبه وتلقينه ... الخ .

ففي رمضان على سبيل المثال، ذكر الرجل بإعجاب كبير أن أهل مكة لحماسهم في العبادة، عادتُهم في رمضان أن يعتمروا بأُسَرهم [٦]، ومنهم

١ – الرحلة : ٦٢٣ .
٢ – الرحلة ٦٢٤ .
٣ – الرحلة : ٦٢٤ .
٤ – نفسه .
٥ – الرحلة ٦٢١ .
٦ – الرحلة ٦٩٩ .

من كان يخرج للتحنث في غار حراء [١] .

أما الأثرياء منهم، فقد قدم لنا صورة دقيقة ورائعة عن عادتهم في الاحتفال بهذا الشهر الكريم، وتشميرهم فيه للعبادة والطاعات، وخدمة الكتاب العزيز وأهله، إلى غير ذلك من أنواع القربات، وذلك في نص بديع نورد جزءا منه لأهميته – على طوله –. يقول : " ولما دخل شهر رمضان أخذ الناس بالجد، وشمروا عن ساق الاجتهاد في العبادة، ونصبت الأسواق طول الليل كما هو شأن أهل المشرق في ليالي رمضان ؛ فلا تكاد ترى بالمسجد ليلا إلا طائفا أو تاليا أو مصليا . وأخذ الناس من أهل مكة والمجاورين في الاعتمار سيما ليلة الجمعة، فلا تكاد الطريق تنقطع طول الليل من التنعيم إلى مكة، ركبانا ومشاة، رجالا ونساء، وصبيانا وعبيداو إماء ...

واجتهد أهل الثروة من أهل مكة، فكان لكل واحد منهم مصباحٌ كبير بين يديه وخصفة يجلس فيها كل ليلة بالمسجد . ويأتي بنفر يقرؤون عنده من القرآن أجزاءً على المناوبة، إلى أن تذهب حصة من الليل ؛ فإن كان قارئا قرأ معهم، وإلا استمع . ويسقيهم من الأشربة اللذيذة على قدر وسعهم ويطيبهم . ويستعدون لذلك على قدر وسعهم ؛ فترى صحن المسجد على سعته يزهر مصابيح، وعلى كل مصباح نفر يقرؤون .

فإذا كان ليلة الختم احتُفل لها أكثر، حتى تكون ليلة العيد، فيعطِي كلُّ واحد منهم لمن يقرأ عنده كسوة ودراهم على قدر حاله ومروءته، فينتفع بذلك غاية ضعفةُ المغاربة المجاورين ممن كان يستظهر القرآن، سيما من

١ – الرحلة : ٦٠٦ .

كان حسن الصوت منهم . ومن كانت فيه صرامةٌ يقرأ في عدة أماكن، ويأخذ من كل مكان ما شورط عليه .

وبولغ في تنظيف مقامات الأئمة الأربعة، وترتب في كل مقام إمام يصلي بصلاته جماعةٌ كثيرةٌ من أهل مذهبه، ولهم مسمع . وأعظمهم أبهة وأكثرهم جعجعة وأصواتا مرتفعة الحنفية ؛ فيصلون بين كل تسليمتين بتحميدات وتهليلات وتسبيحات يرفع بها جماعة كثيرة من المؤذنين أصواتَهم، فيرتج لذلك ما حولهم من المسجد . فإذا كانت ليلة ختم كل واحد من أئمة المقامات احتفل لذلك أتم احتفال، وزيد في مصابيح المقام وفرشه وطيبه، وأُتي بشموع كبار هائلة، ورُفعت على حسك عظيمة رائقة . ويحضر الختمَ غالب من في المسجد من الناس، ويُخلع على الإمام بعد الفراغ من الصلاة خلعة من عند السلطان، ويُعطى فتوحا زائدا على الخلعة، كلٌّ على قدر حاله . وأول من يختم الشافعي وهو إمام مقام إبراهيم عليه السلام، ويختم ليلة إحدى وعشرين، والمالكي ليلة خمس وعشرين والحنفي ليلة سبع وعشرين، وَجَدَّ الناس في أنواع العبادات والطاعات ؛ وقد رأيت من المجاورين من يعتمر كل ليلة خمس وعشرين . ويخرج غالب الناس للعمرة من اعتمر قبل ذلك ومن لم يعتمر " .

وكان العياشي إذا تعجب من اجتهاد الناس ونشاطهم للعبادة يقول له شيخه أبو مهدي الثعالبي : إن هذا تأييد إلهي لسكان الحرم ببركة هذا الشهر . ويقول له : " إذا خرج هذا الشهر الكريم لا ترى في الناس حتى عشر نشاطهم . وكان الأمر كما قال ؛ فما هو إلا أن جاء يوم العيد، خف المسجد من سكانه وعُمَّارِه وفَتَرَتِ العزائمُ، حتى أنكرتُ نفسي في أنواع القربات من

طواف وغيره، فما هي التي أعهد " .

وكذلك الأمر في الحج، فقد أطال المؤلف في وصف فرح أهل مكة واهتبالهم به في أكثر من سياق قائلا : " أنه لما استهل شهر ذي الحجة غصت مكة بالوفود، وكثر الناس بها كثرة ما رأينا مثلها في غير هذه السنة . وحج خلق كثير من أهل اليمن وأطراف نجد والحجاز، لأن السنة كانت مخصبة، فسهل عليهم ذلك، وهم أكثر الناس في هذه السنة . وإن كان الأفاقيون أيضا في غاية الكثرة، إلا أن رحاب المسجد وأفنيته والشِّعاب إنما امتلأت من هؤلاء . فتهيأ أهل مكة للخروج من أول الشهر . وخرج غالب أهلها حتى العواتق وذوات الخدود، وبالغوا في انتقاء الفرش والمراكب المزينة ولذيذ الأطعمة كما هي عادتهم . وخرج غالبهم إلى عرفات في اليوم السادس . ويقيمون بها السابع والثامن . وتكون لهم فيها سوق عظيمة حافلة لا يُرى مثلها؛ يجلب إليها طرائف الأطعمة كما هو عادتهم، من الفواكه وغيرها من كل مكان " [١] .

ولعل مما تجدر إليه الإشارة أن ما ذكره العياشي في هذا النص من التفنن في أنواع الأطعمة والطيبات لم يكن أمرا مقتصرا على الأثرياء فحسب، بل أشار في غير ما موضع إلى أنه كان أمرا ميسورا بأسواق مكة المكرمة لكل الحجاج، بفضل ما يجلب إليها من المزارع المجاورة وغيرها من قبل رجال السلطان، وكذلك بفضل ما يبذله أعيان مكة وأمراؤها خدمة للحجيج، حتى قال : " ولم نعد نخرج معنا ما يثقلنا، لتمكن شراء المحتاج إليه

١ – الرحلة : ٦٢٧ .

في كل مكان ".

بل صار أحيانا يجد الماء أو غيره متوفرا في بعض البقاع، فيأسف على ما تكبده من مشقةِ حملِه خشيةَ فقدانه . يقول : " واستقينا من المشعر ماء للاغتسال بعرفة، وآوينا إلى ظل جدار من جدران المسجد . ووجدنا الماء كثيرا في أبواب المسجد، سبله بعض أرباب الدولة جزاه الله خيرا ؛ يبعث روايا، حتى إذا فرغت بعث غيرها، لا يُذاد عنها شارب ولا متطهر . إلى أن صلى الناس وذهبوا إلى الموقف، ولم يُعهد ذلك في غير هذه السنة " [١] .

هذه الحركة الاقتصادية التي تعرفها مكة وما إليها، إلى جانب الحركة الدينية التعبدية، جعلت العياشي يشبه منى بحال الدنيا : " قصور عالية وأسواق حافلة، وجنود مجندة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية ومراكب هنية، وبضائع غير معدودة ومتاجر ثمينة، إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل وصلاة وقراءة ونحر وذبح وإطعام طعام ورمي جمار . وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا " [٢] .

وهو في كل ذلك يؤكد المرة تلو الأخرى على الدور الذي كان يلعبه أرباب الدولة ورجال السلطان ليس في توفير الرخاء الاقتصادي المذكور وتأمين الحركة التجارية النشيطة وتوفير متطلبات الحجاج فحسب، بل أيضا في الإنفاق بسخاء على إصلاح المسجد الحرام حسبما سبقت إليه الإشارة، و في حفر الآبار والعيون والعناية بها [٣]، وفي توفير الأمن للمسافرين من مكة

١ – نفسه .

٢ – الرحلة : ٦١٠ .

٣ – الرحلة : ٦٠٧ .

وإليها ، الأمر الذي انعكس على مستوى ونمط العيش فيها ، ووقف عنده المؤلف وقفات عدة .

فعلى الرغم مما ذكره من كثرة السرقة والنهب بمكة أيام الموسم، لاختلاط الناس واجتماع الأوباش من كل أوب [١] ،وما يحدث بسبب ذلك أحيانا من فتنة وضجيج بين الناس، وعلى عكس ما لاحظه في الطرق من المدينة وإليها من كثرة اللصوص وقطاع الطرق الذين يخلقون الرعب لدى القوافل المسافرة [٢] ، إلى جانب عسكر أميرها الذين ذكر أنهم كانوا ينتزعون الإبل من المسافرين ويقتادونها إليه، [٣] يسجل العياشي بتقدير كبير أن الطريق من مكة وإليها آمنة لا يخاف فيها لص ولا قاطع طريق، وذكر أن ما يروى عن مستوى الأمن هذا يصل إلى حد الغرابة أحيانا .

يقول : " وقد شاهدنا في هذه الخطرة من العافية التي بسطها الله في الطرق والقرى والأمان التام ما قضينا منه العجب ؛ فمن ذلك أنا لقينا عيرا في ليل مظلم تحمل أحمالا من البز الهندي والقماش الرفيع نحوا من عشرين جملا ، وطلبنا أحدا من أصحابنا نسأله عن خبر البلد ، فلم نجد معها أحدا . وذهبنا نحوا من ميل، فوجدنا أصحابها في قهوة مستريحين، وأخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يَتَعَرَّضْهَا أحد . وأخبرونا بعجائبَ من مثل ذلك وقعت في أيام الأمير زيد ووالده محسن ؛ فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلا جاء إلى السلطان محسن، فقال له : إني وجدت بالفلاة الفلانية حملا من البز في

١ – الرحلة : ٥٩٥ .

٢ – الرحلة : ٥٩٥ – ٦٣١ .

٣ – الرحلة : ٥٩٥ .

الطريق . فقال له : ومن أخبرك أنه من البز ؟ فقال : مسسته برجلي . فأمر بقطع رجله، وقال له : لِمَ مسسته ؟ إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات، لا نعلم صحيحها من سقيمها .

ومن لطيف ما شهدناه من أمان هذه الديار وعافيتها أن المسافرين من مكة إلى جدة ومن جدة إليها يكترون الحمير للركوب ولا يذهب صاحب الدابة معها، فإذا بلغ المكتري إلى المحل الذي ذهب إليه أرسل الحمار ولا عليه فيه ؛ فلا يأخذه أحد إلا ربه إن كان في ذلك البلد أو نائبه . ولكل واحد من أصحاب الدواب نائب في غير البلد الذي هو فيه يعرف دابته ويقبضها حتى يكريها له ممن يرجع إلى البلد الذي هو فيه " .

وهذا الحماس الذي أبداه أبو سالم العياشي في الثناء على أهل مكة، وتعداد فضائلهم ومكارمهم، لم ينل منه ما صادفه في بعض السياقات وبعض الظروف من ممارسات ينسبها إلى بعض المكارين من أعراب بادية الحجاز [١] الذين لقي منهم _ هو وصحبه _ عنتا كبيرا بسبب الإساءة إليهم بالغلظة وكثرة إخلاف الوعود والزيادة في ثمن كراء الجمال كل مرة، " حتى بعد شد الأحمال عليها " . وربما فعلوا ذلك في وسط الطريق، وهددوا بطرح الأمتعة، ولذلك وصف بعضهم بأنهم : من أجلاف الأكرياء، " ليس لهم دين ولا مروءة " [٢] .

ولم ينل منه حتى ما لاحظه عند بعض الأهالي من تقاليد وعادات حاول

١ – الرحلة ٥٩٤ .

٢ – الرحلة : ٦٢٧ – ٦٢٨ .

باستمرار أن يتعامل معها من منظور الفقيه الذي يحرص على الوقوف في كل صغيرة وكبيرة على أحكام الشريعة وحدودها، فيرفض ما خالفها ويمتنع عن مشاركة القوم فيه، ويناقش أو يتحفظ في ما فيه خلاف.

من ذلك مثلا أنه وجد عادة بعضهم الخروج ليلة ذي القعدة إلى قبر عبد الله بن عمر، وذكر من خرافاتهم في ذلك أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة، ويزعمون أن من دفن شيئا حصل له في تلك السنة بعدده ريالا أو دنانير، لكن العياشي رفض الخروج معهم، إذ لم يجد له أصلا في كتاب الله ولا في سنة رسوله (ص)[١].

وأشار كذلك في عجالة إلى عادتهم ليلتها في عمل مولد كبير في مشهد السيد العيدروس عند الشبيكة.[٢]

ومن ذلك ما ذكره من أن: " غالب المساجد والمزارت التي هي خارج مكة تُنْتَهك في أيام الموسم، وينزلها الناس بدوابهم، ويطبخون فيها من غير نكير، وهي من البلايا العظيمة ".[٣] حتى إن مسجد النحر، وهو موضع منحر النبي ﷺ في منى، انهدم أكثره، وتلوث بالأقذار والكناسات.[٤]

ومن العادات التي قال إنها مذمومة أن بعض الناس كانوا يحرصون على مشاهدة خلع السلطان على الأمير يوم العيد أكثر من حرصهم على الخطبة، فإذا تم ذلك انصرفوا قبل أن يكمل الخطيب خطبته. يقول: " ولما كان يوم

١ – الرحلة: ٦٠٥.

٢ – الرحلة: ٦٩٦.

٣ – الرحلة: ٦٢٦.

٤ – نفسه.

الأربعاء يوم الفطر، بكر الناس لأخذ مواضعهم للصلاة في المسجد، وبكرتُ وجلست قرب المنبر لاستماع الخطبة . فلم يأت الإمام حتى ارتفعت الشمس وبدا الحر، وخطب خطبة بليغة وأطالها . وقدم مع الإمام جماعة من المؤذنين وأكابر الناس، معهم ألوية، وعلى باب المنبر ألوية أخر، وفرش المنبر كله بالديباج، وجلس المؤذنون تحته إلى باب المنبر، فلما وصل إلى ذكر السلطان والدعاء إليه قام إليه أحد أصحاب الأمير وخلع عليه الخلعة وهو يخطب . وما هو إلا أن يخلع عليه فيذهب الذي معه وتتابع الناس أفواجا حتى لا يكاد يبقى مع الخطيب إلا قليلٌ من الناس، ولا ينتظرون فراغ الخطبة ولا دعاء الإمام . وكان قصدهم إنما هو مشاهدة الخلع على الخطيب، وتلك عادة مذمومة . ولما انفض الجمع ذهب كل واحد إلى منزله، ومن كان له صديق حميم أو قريب أو ولي نعمة ذهب للسلام عليه في مجلسه، ولو لقيه في المسجد أو جلس معه لا يكتفي بذلك حتى يأتيه إلى منزله .[١]

ومن الأمور التي اعترض عليها العياشي، أن بعض الحجاج يشترون الغنم ويصعدون لأكلها في جبل أبي قبيس زاعمين أن ذلك يقى فاعلَه من وجع الأسنان والرأس[٢] .

واعترض كذلك على عادة الحجاج أخذ نجارات الخشب وبعض تراب البيت للبركة، على أساس اعتبارها من متاع البيت الحرام، لا يجوز أخذه بصرف النظر عن تفاهة المأخوذ، أو القصد منه .[٣]

١ – الرحلة : ٦٠١ .

٢ – الرحلة : ٦٢٣ .

٣ – الرحلة : ٦٠٥ .

وتحفظ برفق من روايات عدة لم يصح له بشأنها دليل، مثل : نسبة حكاية الذبيح عليه وعلى نبينا السلام إلى موضع مسجد الكبش [١]، أونسبة حلق رسول الله (ص) إلى موضع مسجد بعينه [٢]، وسفه ما ذهب إليه بعضهم بشأن قبر علي كرم الله وجهه [٣] .

وعلى عادة العلماء المحققين، كان الرجل لا يتردد في تصحيح ما يبدو له أوهام العوام في مروياتهم، مستنجدا في ذلك بأمهات الكتب العلمية، مثلما فعل مع قبر الإمام القشيري النيسابوري الذي جزم بأنه لابنه، بعد الرجوع إلى طبقات تاج الدين السبكي [٤] .

لكنه كان في كل هذا وذاك حريصا على التزام حدود الأدب، سواء في الرفض أو التصحيح أو التحفظ أو غير ذلك .

٣ – وباعتبار اشتغال العياشي بالعلوم الشرعية وانتمائه إلى حملتها، فقد كان طبيعيا أن يقف مليا عند طبقة مهمة من مكونات المجتمع المكي، ألا وهي طبقة العلماء والفقهاء، فوصف بإسهاب – وإطناب أحيانا – ما كانت تعرفه الساحة العلمية من ازدهار ومن حركة نشيطة على جميع المستويات، تعلما، وتعليما، وجمعا، وتأليفا، وتوثيقا، وشرحا، وتعليقا، وجدالا، ومناظرة، وإجازة، واستجازة، ورواية، وسماعا، ومناولة، إضافة إلى الأعمال الإحسانية الخيرية التي كان يضطلع بها العلماء، كحفر العيون

١ – الرحلة : ٦٢٧ .

٢ – نفسه .

٣ – الرحلة : ٦٢٤ .

٤ – نفسه .

والآبار، وإصلاح الطرق، ومساعدة الفقراء، وغير ذلك، الشيء الذي انعكس على نص الرحلة نفسها، إذ حفلت بعدد من النصوص والمعلومات القيمة في هذا الصدد .

وقد أمدنا العياشي بأسماء عدد كبير من أكابر العلماء الذين أثروا الساحة العلمية بمكة في أيامه، غير أن ما يثير الانتباه في هذا الأمر أن عددا كبيرا ممن ذكرهم كانوا مغاربة، وكان لهم حضور قوي في المجتمع المكي، وعلى رأسهم شيخه أبو مهدي عيسى الثعالبي، الذي ترجم له ولعدد من شيوخه، وذكر أنه لازمه وأخذ عنه في شتى العلوم، واستجازه، وارتبط به في الحج وغيره، وحكى كثيرا من مذاكراته العلمية معه ومروياته إلى غير ذلك، وقال إنه كانت له وجاهةٌ وقَبول تامٌ عند أهل الدنيا والآخرة معا .[1]

ومن هؤلاء كذلك شيخه أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد المكناسي الحسني المغربي الذي أخذ عن عدد من أعلام فاس وقصر كتامة وتامسنا والقصر واصطنبول . وذكر أنه لصلاحه واستقامته صارت له وجاهة ومحبة وتقدير لا في نفوس العوام فحسب، بل أيضا في نفوس رجال الدولة والأمراء والأثرياء من أهل البلد، وفي نفوس الفقراء والمحتاجين كذلك، حتى صار ملجأ لهم . يقول : " وأتحفه أمراء الأطراف بالهدايا السنية وفاخر العطية، وحصلت له بمكة وجاهة كبيرة، ومنزلة خطيرة عند أمرائها . وبث العطاء في العباد، وسال من غيث سخائه كل واد . فعم معروفه أهل مكة، الأمراء فمن دونهم . ولا يتمسك من الدنيا بقليل ولا كثير . ولا يقتني منها ملبوسا ولا

١ – الرحلة : ٦١٦ .

مركوبا ... وكان له عبيد وإماء للخدمة في غير الدار التي يسكنها . ولم يتخذ من الفُرُش سوى حصير يجلس عليه أو لبد وما يشبه ذلك . غالب لباسه شتاء وصيفا قميص واحد وكوفية على رأسه ... وقد أخبرني بعض أصحابنا أن له في كل يوم مصروفا نحوٌ من مائة قرش في أهل مكة ؛ منهم ذو الدرهمين إلى العشرة إلى العشرين إلى أكثر، سوى ما يكون للفقراء والغرباء من خبز ولحم وغير ذلك . وكان بعد أن كثرت حمالته واتسعت دائرته، وفشا معروفه في الناس وصار أكثر الفقراء والمنتسبين بمكة عيالا عليه، ربما يقل ما بيده فيستدين، وربما بلغ الدين الذي عليه إلى الخمسين ألفا أو إلى مائة ألف، فيؤدي الله ذلك عنه ..." .

ومنهم كذلك الشيخ محمد الغدامسي [١]، والشيخ عبد العزيز التواتي – من أهل تيجورارين جنوب المغرب الأقصى _ الذي لقيه بالطائف وقال إنه تزوج امرأة من أهل البلد، ورزق منها عدة أولاد، وله عند أهلها مكانة [٢] .

ونتيجة لهذا الحضور العلمي القوي للمغاربة في المجتمع المكي، ونتيجة لشدة التواصل العلمي والفكري بين مجتمع مكة المكرمة ومجتمعات كل الأمصار الإسلامية مهما بعدت المسافة الجغرافية بينها، وجدنا سوق الوراقة والمكتبات تزخر بعدد كبير من نفائس المخطوطات المغربية والأندلسية في شتى أنواع العلوم، نكتفي هنا بذكر بعض منها على سبيل المثال لا الحصر :

– رحلة ابن رشيد السبتي (نسخة فريدة) .[٣]

١ – الرحلة : ٥٩٩ .

٢ – الرحلة : ٦٠٧ .

٣ – الرحلة : ٦٢١ .

– منتهى السول في مدح الرسول لمحمد بن أبي القاسم بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري (ق ٧ هـ) . [١]

– " الدرة السنية في المعالم السنية "، وهو في السيرة النبوية .

– " الأعلام المحمدية " للقاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي . وذكر في آخره أن عدد أبيات الكتاب سبعة آلاف بيت من الرجز . وأنه أنشأه بقرطبة سنة أربع عشرة وستمائة .. " [٢] .

– كتاب " اللآلئ المجموعة من باهر النظام وبارع الكلام ... "، جمعه عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وجملة ما فيه من المقطعات ينيف على مائة وثلاثين، بين صغيرة وكبيرة ....

– ثم كتاب عيون الأدلة لابن القصار، والمدونة الكبرى، وغيرهما من الكتب التي أتلفها السيل ضمن ما أتلفه في هذه السنة [٣] .

هذا بالإضافة إلى عدد من نوادر المصنفات الأخرى التي وقف عليها العياشي ووصفها بالغريبة لكنه ذكرها بشكل عرضي، مثل : " تاريخ الإسلام " للحافظ أبي عبد الله الذهبي في عشرة أجزاء كبار، وكتاب " طبقات " المنوفي .

وأشار إلى أن من أهل العلم من كان ضنينا بهذه الكتب، فصار يستنجد بشيخه الثعالبي بين الفينة الأخرى لاستعارتها منهم .

---

١ – نفسه .

٢ – الرحلة : ٦٢١ .

٣ – الرحلة ٥٩٧ .

ولكثرة المغاربة المجاورين بمكة واشتهارهم فيها بحفظ القرآن خصوصا، وبالعلم والصلاح كما أسلفنا، فقد وجدنا بها رباطا خاصا بهم معدا لنزولهم ، هو رباط الموفق [١] .

ومن علامات هذا الحضور القوي للمغاربة في الحركة العلمية بمكة المشرفة، تلكم النازلة التي روى أنها حصلت بين الحنفية والمالكية، بشأن الصلاة، وألف هو رسالة فاصلة في إشكالاتها الفقهية، وبيان الصواب فيها، أوردها بنصها كاملة . [٢]

أما المغاربة المقيمون الذين اشتغلوا بالتجارة بين أهل مكة وصاروا من أثريائها، فلم يذكر العياشي منهم إلا التاجر الحاج العنابي التونسي الذي أثنى بحرارة على فضله وخلقه وصلاحه [٣] .

وطبعا إلى جانب المغاربة، يذكر العياشي عددا كبيرا من العلماء أخذ عنهم وأخذوا عنه، وأجازوه وأجازهم، وجالسهم، وذكر نبذا من حكاياتهم ونوادرهم وأشعارهم ، ينحدرون من اليمن [٤] ومصر، والشام، وبلاد العجم، وغيرها من بلاد الإسلام [٥] .

وهو أمر يمكن أن نستبط منه بالتبع صورة واضحة جلية عن طبيعة تركيبة المجتمع المكي نفسه المتنوعة، باعتبار انتماء عدد من مكوناته إلى

---

١ – الرحلة : ٥٩٥ .

٢ – الرحلة : ٦٢٢ .

٣ – الرحلة : ٦٠٣ .

٤ – الرحلة : ٦١٨ .

٥ – الرحلة : ٦١٠ – ٦١١ – ٦١٥ – ٦١٦ – ٦١٨ – ٦٢٠ .

جذور تتوزع على امتداد بقعة العالم الإسلامي آنذاك، من أقصى بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين ، وهو أمر طبيعي كما هو معلوم، بالنظر إلى قدسية مكة المكرمة، وكونها محج المسلمين، ومهوى أفئدتهم، الذي تشرئب إليه الأعناق، وتتطلع إلى بلوغه القلوب، زادها الله تشريفا وتعظيما .

***

وفي ختام هذه الكلمة الوجيزة لا بد من الإشارة إلى أن ماقمنا به في واقع الأمر ليس إلا قراءة مركزة سريعة لأهم ما سجله أبو سالم العياشي من مشاهدات وملاحظات عن خصوصيات المجتمع المكي في زمانه، وإلا فإن تفصيل الكلام في هذا الأمر لا يتسع المجال له هنا، وأرجو أن تتاح فرص أخرى لبسط الحديث فيه بتفصيل .

هذا مع الإشارة إلى أن موضوع أدب الرحلات المغربية، واحد من أهم الموضوعات العلمية التي من حقها أن تنظم لها ندوات متخصصة لفائدته العلمية القصوى ليس في عملية الوصف السطحي والتقريري فحسب، بل أيضا لكونه جسرا يفتح آفاقا للتواصل والتلاقح بين مختلف الأعراق والأجناس، والحضارات، والثقافات، والأنماط الفكرية، فبالأحرى بين أبناء الوطن الإسلامي الواحد الذي تجمعه من عرى الدين، واللغة، والحضارة، والتاريخ المشرك، والمصير المشترك، ما يجعلنا في الحقيقة :

– من جهة نقف مشدوهين أمام قدرة أسلافنا على تحمل المشاق والمصاعب، طلبا لهذا التواصل والتلاقح، وصلة الرحم، مع إخوة الإسلام . وما الحج نفسه إلا ملتقى سنوي دعا إليه الحق سبحانه لغاية توثيق هذه اللحمة .

– ومن جهة ثانية، مدعوين إلى السير على نهجهم والاقتداء بهم في هذا

المطلب، خصوصا في ظل ما عرفه عصرنا من تطور علمي يسر عملية التواصل هذه، ورفع حرج السفر بالتنقل الجسماني، وسهل إمكانيات تداول المعلومات والعلوم والمدركات .

فعندما كان أبو سالم العياشي يقطع كل هذه المسافات، لم يكن قاصدا من وراء ذلك الاكتفاء باستكشاف العوالم الغريبة بالمعنى الجغرافي الفيزيقي للكلمة فحسب، وإنا كان قاصدا – بالدرجة الأولى – ربط الفروع بأصولها، ولذلك كان يعتبر نفسه – كمسلمٍ – حجازيَّ الهوى، مكيَّ الدين والعقيدة .

وإحساسه هذا بالانتماء إلى المجتمع المكي هو الذي جعله لا يجد حرجا في التعامل مع كل مكوناته، وتأخذه الغيرة عليه، وأحيانا يصحح ما بدا له غير سليم فيه، ولذلك علم بمكة وتعلم، وأجاز واستجاز، وأفاد واستفاد، وخدم وخدم، من قبل كل المقيمين الذين كانوا مثله مكيين هوى وعقيدة ودينا، وإن اختلفت انتماءاتهم العرقية .

وفي المقابل، وبنفس الصدق والمحبة ظلت مكة منذ فجر الإسلام حضنا ووطنا وملتقى لكل المسلمين حتى صارت خليطا من الأعراق وكل الأجناس من أهل الملة، ولذلك وجدنا العياشي يتحدث عن رجال تبوؤوا بها أعلى المراتب العلمية الدينية والدنيوية، سواء من المغاربة أو من أهل مصر أو اليمن أو الشام أو غيرها .

ولهذا الاعتبار أساسا نختم بالعودة مرة أخرى إلى التأكيد على الدعوة إلى الاهتمام بأدب الرحلات المغربية، واستثماره كخلفية تاريخية في أفق تأسيس حركة رجعة قوية إلى التمسك بتلكم اللحمة بين أقطار بلاد الإسلام

المصادر والمراجع

– القرآن الكريم

المطبوعات :

+ الجامع الصغير– للسيوطي – دار الفكر – بيروت – ١٩٨١ .

+ الجامع الصحيح – للبخاري – دار إحياء التراث – بيروت – لات .

+ الصحيح – مسلم – دار إحياء التراث – بيروت – لات .

+ الفردوس بمأثور الخطاب – لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي الهمذاني (ت ٥٠٩ هـ) – تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٩٨٦ .

+ اللمع – لأبي نصر السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) – تحقيق د عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور – دار الكتب الحديثة بمصر – ومكتبة المثنى ببغداد – ١٩٦٠ .

+ قوت القلوب – لأبي طالب المكي . محمد بن علي (ت ٣٨٦ هـ) – دار الفكر– بيروت – لات .

+ إحياء علوم الدين – لابي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) – دار الفكر – بيروت– ط – ١ – ١٩٩١ .

+ مقدمة كتاب العبر – لعبد الرحمن بن خلدون – تحقيق علي عبد الواحد وافي – دار النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٥٦ .

+ الرحلة العياشية (ماء الموائد) – لأبي سالم العياشي – طبعة حجرية – منشورة بعناية : محمد حجي – لات .

+ رحلة المنى والمنة لجامعها ومنشئها الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة – عبد القادر زمامة – مجلة البحث العلمي – ع : ٢٨ – س ١٤– يوليوز / دجنبر ١٩٧٨ – المعهد الجامعي للبحث العلمي – جامعة محمد الخامس – الرباط .

المخطوطات :

+ التعريف والإيجاز، ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، لأبي سالم العياشي . الخزانة العامة بالرباط . أرقام : ٤٣ ك، ٢٨٣٩ د، ٢٧٩٣ د

+ الرحلة المقدسة لمحمد بن المرابط الدلائي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٣٦٤٤ د .

+ حجازية أبي علي اليوسي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤١٨ ك ضمن مجموع، وأخرى بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٢٣٤٣ .

+ هداية الملك العلام، إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام، وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، لأحمد بن محمد الجزولي الهشتوكي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٩٠ ق (٦٤ ميكروفيلم) .

+ حجازية ثانية له – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤٧ ق .

+ نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس، لأحمد بن علي القادري الحسني الفاسي . الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤١٨ ك ضمن مجموع، و:

٣٢١٦ ك – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٨٧٨٧ .

+ رحلة القاصدين ورغبة الزائرين، لعبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٥٦٥٦ .

+ حجازية محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ١١٨٦٧، وثانية بخزانة القرويين بفاس تحت رقم : ١٢٥٨ .

+ حجازية أبي مدين محمد بن أحمد السوسي الدرعي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ٢٩٧ ق ضمن مجموع .

+ بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، لعبد المجيد بن علي المنالي الزبادي الحسني الفاسي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٨٠٨ د، ورقم : ٣٩٨ ك .

+ حجازية محمد بن أحمد الجزولي الحضيكي الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٨٩٦ ضمن مجموع .

+ إحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، لابن عثمان المكناسي – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٥٢٦٤، و : ١٢٣٠٧ .

+ حجازية أحمد بن محمد الفهري – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٨٨ ج ضمن مجموع .

+ الحجازية الصغرى لمحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ١٤٧، و : ١٢١ .

+ الحجازية الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ٥٦٥٨ .

+ حجازية إدريس بن عبد الهادي العلوي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١١١٥ د ضمن مجموع .

+ حجازية محمد بن عبد الله الغيغائي العمري – الرباط تحت رقم : ٩٨ ج (ميكروفيلم : ١٢) .

+ حجازية أحمد بن محمد السبعي السغروشني– الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٢٩٠٧ ك .

+ حجازية عبد السلام بن محمد السرغيني العمراني المراكشي – الخزانة العامة تحت رقم : ١٠١٢ ك ضمن مجموع .

+ حجازية محمد بن أحمد العلمي الحسني الفاسي – الخزانة العامة تحت رقم : ١٠١٢ ك ضمن مجموع .

+ حجازية محمد بن الهاشمي بوشعراء السلوي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٣٢٥٩ د .

+ حجازية إدريس بن محمد السلاوي – نسخة مخطوطة ببعض الخزائن الخاصة بسلا .

+ حجازية أحمد بن العياشي سكيرج الفاسي الخزرجي – الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم : ١٢٤٩٩ .

+ الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية ، للحسن بن محمد الغسال

الطنجي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ١٤٩٦ د .

+ الرحلة المغربية المكية، لأحمد بن محمد السلاوي – الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٨٥٠ د ضمن مجموع (ميكروفيلم : ١٢١٦) .

+ الرحلة المعينية المحررة، إلى مكة والمدينة المنورة، لمحمد ماء العينين بن محمد العتيق الشنقيطي – نسخة على الميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : ٨٠ .